# ساقية الدحلاب

## عرفات سعيد

جلس يستظل بنخلته التي اعتاد شرب الشاي تحتها مردداً المواويل الشعبية القديمة تحيطه الخضرة وجمال الطبيعة وأولاده من حوله يلعبون، وعلى بعد أمتار قليلة سمع صوتاً ينادي بلهجة بحراوية:

- يا حاج محمد يا حاج محمد.

محمد:

- أيوه مين بينادي اتفضلوا.....اتفضلوا يا بهوات.

حيث لمح شخصين يرتديان البِذل الغالية يترجلان من سيارة فاخرة !

ناداه أحدهما قائلًا:

- إذا سمحت تعالى هنا عايزينك.

هرول الرجل باتجاه السيارة متمتمًا بارتباك وخوف شديدين:

- يا خراب بيتك يا محمد .....يا خراب بيتك؛ دول شرطة الكهربا ولا بتوع الميه! لأ دول بتوع الجيش وقعة مربربة حيجندوني بعد التلاتين، بس دي مش عربية شرطة ولا ده لبسهم؟! اااااااه دول بتوع المخابرات يا نهار مطين وأنا امبارح عمال أسب في الريس على القهوة، اتخرب بيتك يا ...!

حسم أمره ووصل لتلك السيارة المُفيّمة؛ وبصوت مرتعش متقطع:

- أيوه يا بيه خير؟!

- أنا عملت إيه يا باشا؟!

إمتدت يد أحد الأفندية نحوه ليمسك بمعصمه ويجذبه نحو شباك السيارة هادرًا بصوت خشن:

- كلم الباشا .

بدأ زجاج السيارة بالنزول ليظهر خلفه وسيم بعمر الخمسين مشبهًا الوزراء بهيأته مرتديًا نظارة سوداء تخفي نصف وجهه كما في الأفلام .

الرجل:

- أيوه يابيه أؤمرني خدامك .

البيه:

- متخافش إحنا محتاجينك في خدمة صغيرة .

الرجل بتساؤل:

- أنتم يا باشا محتاجيني أنا في خدمة؟! خبر إيه يا ولاد الأيام بتمشي بضهرها؛ ولا القطط كلت عيالها!! سيبوني يا بيه أرمح أربي عيالي.

البيه:

- قولنالك ماتخافش إحنا عايزينك في مهمة وحتاكل من وراها الشهد .

الرجل باستسلام:

- نعم يا بيه خدامك قول .

- تعرف فين مكان ساقية «الدحلاب»؟!

ردّد (باستغراب وشرود):

- ساقية «الدحلاب!» لا يا باشا في عندينا أربع سواقي مفيش فيهم الاسم ده وعلي العموم يا باشا اديني فرصة أدور واسأل بس الأول هي في بلدنا ولا البلد اللي جنبنا؟!

- لأ بلدكم ولو جمعتها حدفعلك اللي إنت عايزه.الرجل: خلاص يا بيه إدينى يومين ويوم الجمعة تعالوا أكون جمعتها.

- تمام خد دول وخد الكارت بتاعي ولو جمعتها قبل اليومين كلمني .

- ربنا يخليك يا بيه؛ ربنا يبارك فيك ويطول في عمرك؛ من يد ما نعدمها ياباشا.

ثم ركبوا جميعهم السيارة ورحلوا وعاد الرجل لكوب الشاي الذي فقد نكهته مثله وأولاده الشاخصة أعينهم والدمع يتأرجح فيهم؛ جميعهم صامتون فقط الأعين تحمل كمًا من الأسئلة التي تحتاج كراسة إجابة !

وإذا بصباح تناديهم:

- يا محمد، ياخالد، يا شهد، جبت الوكل يلا تلاقيكم حتموتوا من الجوع !

يلتفتون جميعهم ليروها تحمل صينية الطعام فوق رأسها، بوجهها القمري وإبتسامة رضا وتفاؤل، وبنظرة واحدة لوجه زوجها عرفت أن هناك أمراً قد حدث.

صباح:

- مالك وشك مصفر إنت عيان؟! وإيه الكيس اللي في إيدك ده، مالكم؟ ما تردوا؟!

جلس الرجل وعقله يضرب أخماساً في أسداس!! ثم لوح بيده لها فراحت إليه مسرعة .

الزوجة:

- خير !.

الزوج:

- تعالي عايزك في كلمتين .

اصطحبها وجلسا سويا على القنايه، وبكل لهفة وانفعال:

- بقولك إيه يابت الناس إسمعيني زين، إحنا طاقة القدر اتفتحت لنا وحنكون أصحاب أطيان وعمايز، وحجبلك الكردان واللبة والحجل؛ وحنروح أحلى رحلة حوديكي الأقصر، حدلعك بس قوليلي الأول: تعرفي مكان «ساقية الدحلاب»؟!!

- ربنا يخليك ليا ياجوزي يا أبو عيالي يا سندي ياغالي روح ربنا يطول في عمرك يا سبعي .

وإذا بالزوج ينهرها:

- خلاص يابوي خلاص قوليلي الأول بس فين ساقية الدحلاب؟! أحب على راسك وراس خالاتك وعماتك وكل عيلتك إلحقيني، تعرفيها؟!

أيوه عرفاها .

- الله أكبر أبوسك ولا أشيلك ولا أعمل إيه بس أحب فوق راسك يا وش السعد يا مرتي وأم عيالي؛ طب فين دي أصلي ما أعرفهاش؟

صباح حاصلة على ليسانس آداب لغة عربية، ارتضت بالزواج من محمد الأمي وأتقنت لهجته وتطبعت بطباعه لأنه ابن عمها رضوخاً لعاداتهم؛ لذلك عندما رأت الكيس الأسود، ووجه زوجها الشاحب وتساؤلاته حول هذه الساقية التي دفن سرها مع والدها .

أخذت تربط الخيوط معًا وتوصلت لنتيجة أن هؤلاء الأفندية قد عرفوا من مصدر ما سر تلك الساقية الذي يجهله زوجها .

الزوجة:

- هو الكيس ده فيه إيه؟!!

الزوج:

- فيه خمسين باكو يا وش السعد ح نقب على وش الدنيا .
- أخدتهم مقابل إيه يا محمد؟!
- ولا حاجة كل الحكاية أني أوريهم ساقية الدحلاب
- وعرفت ليه هم عايزين ساقية الدحلاب دي؟
- وأنا مالي يا صباح أنا أقبض وهم حرين إياكش يردموها أنا مالي أوريهالهم وآخد فلوسي! فين بقى قوليلي عشان أكلمهم ويجبولي الفلوس الكتيرة ونعيش إحنا وعيالنا اللي طول عمرهم محرومين من كل حاجه زينه وإتعذبوا معانا.
- إنت مخك ناشف بقولك ما ينفعش الناس دي تعرف الساقيه، دا سر قديم واندفن وصاحبه محذرني من إني أحكيه!
- بقولك إيه علي الطلاق لو ما قلتي ما إنت باقية علي ذمتي تاني سامعه.

استشعرت صباح أن بوادر العواقب من إفشاء السر تحلق في الأفق، لكن لم يبق لها حرية الاختيار !

الزوجة:

- بقولك يا محمد يلا نروح وححكيلك سر الساقيه في البيت .

وعندما وصلوا منزلهم الريفي البسيط المبني بالطوب اللبن والمغطى بالبوص، كان الرجل قد نفذ صبره وأخذ يتعجلها لتبوح له بالسر.

××××

بدأت تسرد السر قائلة....

قبل وفاة والدي بشهر وحين اشتد عليه المرض أجلسني بجواره وقال:

- حاسس إني أجلي قرب وعايز أقولك سر، إنت عارفة عمك خلف مات كيف؟!

قلت:

- أيوه..... أيوه يابا، نهشته حية عند النخلة اللي في الحوش!

فرد الأب:

- لا يا بتتي أنا اللي قلت كدا ساعتها.

رديت عليه:

- إيه اللي حصله يابا؟!

قالي:

- يا بتتي في ساقيه اسمها ساقية الدحلاب، حصل جفاف زمان ونزلنا أنا وعمك ننضفها عشان تزيد الميه فيها، عمك وهو نازل بيحط رجله في حيط الساقية، القالب رمح لجوه، قام بإيده حاول يشوف الفتحه رايحه لفين لكن الفتحه كانت غويطه!

عمك نده علي هات الطوريه وانزلي، اتخضيت، وبدون تردد أخدت الطوريه ونزلت، فضل عمك يخبط في حيط الساقيه لما الفتحه بقت تدخل

واحد قعد عمك يشخط في الكبريت عشان نشوف حاجه مشفناش وطلعنا، لكن اتفقنا بعدها نجيب كلوب (مصباح) ونعرف الفتحة دي مودية فين وفيها ايه .

وفعلا بالليل روحنا وواحد ورا التاني نزلنا في الفتحه لقينا سلالم وحيطان عليها مساخيط ورسومات تعابين وديابه وصورة لأسد براس تعبان، المهم بعد مسافة وصلنا لأوضه لقيناها مليانه عرايس بس غالبيتهم حجر مفيش غير زلعه فيها شوية عملة دهب، وفي كتاب جلد وعصايا علي شكل تعبان وتابوت علي شكل راجل مكتف إيده وكأنه حيتكلم !

اتفقنا أنا وعمك إن محدش يعرف السر ده غيرنا وفعلا قدرنا نحافظ عليه طول عشر سنين كل ما نتعذر نجيب كام واحدة من الدهب ونبيعهم، لكن مرة أنا كنت مسافر عمك أخد مرته معاه ونزل يجيب الدهب طلع لقاها مرميه علي الأرض ورجلها بتنزف، افتكر الورق الجلد اللي تحت نزل جاب ورقة ولف رجلها بيها وأخدها وروح لكن قبل ما يوصل البيت كانت ماتت ساعتها لما سألوه الناس، قالهم حية نهشتها ولما أنا رجعت حكالي اتلخبطت!.. لكن نسينا مع الأيام، ولفت السنين والجوع زاد يا بتي افتكرنا أنا وعمك ساعتها نرجع ننزل تاني ونجيب آخر حتت من الدهب لكن أنا خفت علي عمك وقلتله مش حتنزل أنت، أنا اللي حنزل وفعلا نزلت أنا لكن حسيت بوحشه وأنت عارفاني الخوف ما يعرف لقلبي طريق لكن خفت وحسيت الصور بتتحرك وأصوات صريخ وحد بيقولي حتندم حتندم! المهم بقيت زي المسبح كلي عرق والجلابية مبلولة طلعت علي آخر نفس !

أبص ألاقي عمك مرمي علي الأرض ورجله بتنزف دم، قطعت الجلابيه وربطت رجله وفي البيت بشوفه لقيته مات.

لما سألتني الناس قلت الحية اللي في النخلة نهشته وهو نايم، بعدها روحت لشيخ وحكيتله قالي دا الحارس بتاع المكان ومن ساعتها أنا غطيت الساقيه ومعدتش أخلي حد يروح لها .

يابتيّا الساقيه موتت أخويا ومرته فيها جن واعر قوي متحكيش لحد ومتروحيش عندها !

وأنا من ساعتها مش راضيه أقول لك خايفه عليك وعلى عيالي.

××××

وقف الزوج وعيناه يتطاير منها الشرر :

- كل ده تعرفيه ومعيشانا في الفقر طب أقولك إيه بس ربنا يسامحك! طيب آديني عرفت السر فين بقي المكان يا شملولة؟!

الزوجة:

- بعد اللي قلته لسه برضك عايز تمشي في السكة دي؟!

الزوج:

- عليا الطلاق لو ماقولتي لتكوني خلصانه من ذمتي .

راحت الزوجة تذرف الدمع وتدقق النظر بمحمد الزوج الطيب الودود، الذي لم يعتد يوماً أن ينهرها أو يرفع صوته عليها تحول فجأة عبداً للمال وكأن أحداً غيره يتحدث !

وبصوت يملأه الشجن ونبرة كأنها تودع الحياة قالت الزوجة:

- عارف البير اللي مغطاياه في الحوش بتاعنا؟!

- أيوه ماله؟!

الزوجة:

- هو ده ساقية الدحلاب.

هب من مكانه فزعاً والشرر يتطاير من عينيه:

- كيف يعني؟ وفي بيتي كمان كيف؟

ظل يهذي ويدور حول البئر القديم ويتمتم بكلمات غير مفهومة وبسرعة نزع جلبابه وأزاح الستار عن البئر وهم بالنزول فيه لم يمنعه عن ذلك توسلات زوجته ولا صراخ أولاده، وقبل أن يفكروا في منعه كان داخل الساقية المهجورة فتجمدوا مكانهم خشية أن يفتضح السر للجميع.

تهليله أعادهم للحياة مرة أخرى وأخرجها من شرودها -فقد ظلت ترتجف وتدعو أن يخرج زوجها من البئر سالمًا - فقامت مسرعة تتعثر في جلبابها .

تردد كلمات الحمد وقبل أن تصل إليه رأته يسقط أمامها مغشياً عليه وقدمه تنزف دماً .

رحل الزوج تاركاً زوجته تواجه المشكلات وحدها ومصير مجهول ينتظرها تزاحمت الأفكار في رأسها وتوالت المشاهد أمام عينيها زوجها، الساقية، الأفندية، الآثار، صوت والدها يحذرها:

"الساقية يا بتى' الموت يا بتي .....!"

صباح وعفاريت الإنس والجن

عادت مخمرة بغبار المقابر بعد أن أودعت زوجها مثواه الأخير، مودعة ذكرياتها وأمنياتها معه، مقبلة على حرب لا هوادة فيها ولا تراجع عنها .

ثلاثة أيام هي مراسم العزاء الأولى وتبدأ في تنفيذ خطتها هكذا حدثت

صباح نفسها وهي وحيدة حزينة في غرفتها أول ليلة بعد رحيل زوجها.

صبيحة اليوم الرابع لم تنتظر صباح حتى تطلع الشمس فقد جافاها النوم ولم تستطع صبراً فتسللت فجرًا وقد قررت مقابلة جارتها العجوز خديجة؛ أخذت تطرق الباب بلهفة وحذر ثم رفعت صوتها بالنداء :

- خالة خديجة أنا صباح يا خالة إفتحي يا خالة

فتحت الخالة الباب مندهشةً من خروجها في هذه الظروف وذلك التوقيت!!

قصت عليها كل شيء بكل صراحة واختصار :

- اسمعي يا خالة من غير لف ولا دوران أنا أبويا حكالي علي كل حاجة وقال لى لو سر الساقيه اتفضح روحي لخالتك خديجة وهي حتقولك تتصرفي كيف واديني جتلك ياخالة أعمل إيه وأروح لمين! تعبانه يا خالة فيديني !

مسحت الخالة دموعها الحارقة وهدأت قليلاً من روعها وبدأت تسرد لها الحل قائلة :

- بصي يابتي أبوكي قبل ما يموت قالي لو جتلك بتي صباح أديها الورقة دي وقوليلها أنك متعلمة وتقدري تنفذيها أنا خفت يابتي مقدرتش أنفذها خفت عليكي لكن لو اتزنقتي إعملي المكتوب فيها .

ونهضت تحضر لها تلك المخطوطة، التي كانت داخل إناء فخاري أ،خذت المخطوطة والورقة وشرعت في قراءتها، إذا هي مكتوبة بخط غريب يصعب قراءته فالأحرف ليست عربية !

شردت لوهلة ثم التفت للعجوز.

- طب قالك حاجة تاني يا خالة؟!

العجوز:

- لا يابتي غير أنك تخلي بالك من نفسك عشان وهو بيأمني كان خايف ووشه مخطوف!

المرأة:

- طب قوليلي ياخالة، هو الشيخ اللي راح له أبويا زمان لساه عايش؟!
- أيوه يا بتي عايش روحيله يمكن يعرفك او يدلك علي اللي في الورق المخربط ده !

لم تتردد ولو للحظة، ذهبت في نفس الليلة وكلها أمل أن تصل لحل تلك الألغاز قبل أن يأتي الأفندية ويسألونها عن زوجها والساقية، لأنها تعلم جيدًا تفكير مثل هذه العصابات ومدى قوتها !

ذهبت بمفردها لم تخش طريق القصب، وظلمته الموحشه وأصوات الذئاب ورهبتها، لم يكن يشغلها إلا الأخذ بالثأر لزوجها من تلك الأفعى، وحماية أطفالها من تكرار هذه الحادثة ومن الخطر الذي يهددهم من عصابة الآثار .

وما أن وصلت لدار الشيخ الذي يسكن عند أطراف القرية وبين زروع القصب، حتى طرقت الباب بقوة ونادت بصوت مرتفع:

- يا عم الشيخ يا عم الشيخ...

لم يستمر نداءها طويلا إلا وقد فتح الباب، وإذا برجل عجوز بملامح غريبة ومخيفه، رجل ضخم الجسد لا يرتدي عمامة قراهم، له شعر طويل يشبه ليفة نخل، ولحية بيضاء كثيفة الشعر مجعدة، وحاجبان كأنهم شوارب غير منمقين! وأنف طويل مدبب! كلها ملامح مخيفة وكان الأغرب عيناه الثاقبتان باللون الأحمر الدموي، اهتزت في داخلها في البداية، لكنها استجمعت

قواها بسرعة متحدثة له:

- أنا صباح بت حمدان اللي جالك زمان عشان ساقية الدحلاب فاكره؟!

الشيخ (وعكس ما توقعته من ملامحه الغريبه وشيخوخته، فهي كانت تتوقع إما المماطله، أو المساومة، أو النسيان !):

- أيوه يابتي فاكره ادخلي تعالي وححكيلك...

بصي يا بتي أبوكي زمان جالي وحكالي اللي حصل وكانت معاه ورقه جلد مكتوبة بالفرعوني وأنا قلتله ساعتها أن الحارس هو اللي بيعمل كدا وعندي إستعداد أخلصك منه بعد ما خدت الورقة الجلد ونزلت مصر لواحد صاحبي كان معايا زمان في الجيش وهو يعرف ناس متعلمه، وقدروا يعرفوني المكتوب في الورقة دي، قلت لأبوكي تعال ننفذها ونطلع المقبرة دي وخد إنت الدهب وإديني المساخيط، لكن أبوكي رفض يا بتي قالي عار علي ادخل حد يكشف حرمة بيتي، لكن أنا كتبتله ورقة فيها الطريقة اللي تخلصه من الجن ده ويقدر بعدها ياخد كل حاجه من غير ضرر بس يا بتي أدي الحكاية .

- يعني الحل يا شيخ مكتوب في الورقة طب لو جبتهالك تفتكرها؟!

- أيوه يا بتي أنا عجزت صوح لكن مخي عال .

ارتسمت ابتسامة أمل على وجهها الشاحب، وقالت :

- طب الورقة أهى يا شيخ !

- تمام يابتي انتي دلوقت عايزه ايه؟! افسرهالك يعني؟!

- أيوه يامولانا وحياة أبوك ياشيخ الحقني، روحي أنا وعيالي معلقة في الورقة دي.

غادرت منزل الشيخ العجوز وهى تعرف يقينا نهاية هذا السر الغريب ووضع حد لكل هذه المصاعب ملتحفة برداء الإصرار والعزيمة مدثرة كل الأوجاع والأحزان بقبر زوجها!

وصلت منزلها مرهقه، بانتظار اللقاء الحاسم، متسلحة بعقلها وتعليمها معتمدة على ربها بأن تنجح.

مر يومان منذ عودتها، وفي فجر اليوم الثالث، بدأ الباب يطرق طرقات متلاحقة، ففتحت الباب علي وجه ذلك المهيب (الباشا)،

الباشا:

- إذا سمحتي يا حاجه ممكن أتكلم معاكي.
- محدش معايا في البيت، لو عايز تتكلم اتكلم هنا.
- طيب الأول البقيه في حياتك وحياة أولادك في المرحوم
- متشكره، انت عايز ايه يا باشا
- أكيد المرحوم حكالك إحنا عايزين ايه !
- أيوه حكالي، ووجها قد تحول للاحمرار من الغيظ
- طب كويس يلا بقي عشان تعرفي تربي عيالك وتقبوا علي وش الدنيا.
- بلهجة مستفزة !
- بص يا باشا، احنا ممنخافش، ولا معنتهدد، بس أنا حقولك عشان تعبت من سلسال الدم ده .
- يبقي متفقين، ايه طلباتك؟!

- هما طلبين يا باشا مش أكتر، عقد بملكيتكم للبيت، واتنين مليون جنيه، وبعدها حاخد عيالي وأسيب البلد بحالها.
- طلباتك موجودة، ولوح بإصبعه لأحد أفراد الحراسه فآتاه بحقيبة، أخرج منها الباشا عقد، إحنا عاملين حسابنا لكل حاجه يا حاجه، وكمان الشنطة فيها تلاته مليون مش إتنين.
- تمام يا باشا كدا أقدر أخد عيالي وأمشي.
- ممكن تورينا المكان الاول يا حاجه.
- اتفضلوا.

أخدتهم للحوش وأشارت لهم علي الساقية.

فأومأ الباشا لأحد رجاله ليتأكد أنه هو المكان المطلوب، فنزل أحدهم ودخل الفتحه فوجد نص فرعوني أول جدار السرداب وصور لبعض الألهه وسلم، ثم خرج، مشيرًا للباشا بعلامة النصر قائلاً:

- كله تمام ياباشا.

الباشا:

- تمام ياحاجه، يلا يارجاله بالليل نيجي نخلص.

وغادرت القرية متجهة لأحد المحافظات الساحلية لتقابل هناك زميلها في الجامعة وحبها القديم وأمنيتها الأولى "سيد".

وصلت لتجده بانتظارها، واستقلا السيارة لتبدأ الحديث معه:

- عايزة مكان أسكن فيه انا وعيالي بس يكون فيه مطرح تحت الأرض ويكون أمان.

- بس ده حيكون غالي يا صباح!!
- ملكش دعوة اتصرف والفلوس جاهزة.
- طيب إيه رايك أنا كنت مشطب شقة اتجوز فيها ايه رأيك تقعدوا فيها لحد ما أشوفلكم المكان اللي انتي عايزاه !!
- ماشي المهم يكون أمان وبعيد عن الزحمه.
- دا مكان حيعجبك قوي.

وصلوا واستقرت هي وأولادها، واطمأنت على كل أغراضها.

بينما هو بدأ ينفذ صبره وكاد عقله ينفجر من كثرة الأسئلة المتزاحمة.

- يا صباح متفهميني عقلي حيفر مني يا شيخة خبر إيه اومال ايه الحكاية!

رسمت صباح ابتسامه خفيفة علي أعتاب شفتيها الجافتين، ثم اتكأت على كرسي متأوهة:

- حقولك على كل حاجه.

وبدأت تقص عليه حتى وصلت في الأحداث لحوارها مع الشيخ..

- ولما مشيت من عند الشيخ كنت متأكدة إني أقدر انتقم من الجن بعد ما عرفت من الشيخ إن الحارس هو اللي بيستغل حيات الحوش ويخليهم ينهشوا أي حد يقرب لأن المخطوطة معناها «الموت لكل من يزعج الملك» والحارس بتاعها عم يظهر في صورة حية، قريت سور القرأن اللي قال لي عليهم وكان مفهمني إن الحارس بقي ضعيف بعد ما محمد قدر يطلع بالتلت حتت وفعلا كان الخوف ملهوش مكان جنب التار، واتوضيت وقريت القرأن وبعدها سمعت صرخة كانت حتخرم ودني،

بعدها أخدت التلت حتت وروحت للشيخ وحكيتله اللي حصل قالي كدا تمام انت كدا حرقتي الحارس الجني، فرحت قوي إني أخدت تار جوزي من الجن.

وقلت للشيخ عايزه أبيع دول، ومفيش كام ساعه كان جايب لي شنطة سفر مليانه دولارات، وقالي يابتي انت كدا ملكيش قعاد في البلد، قلتله لا يا شيخ لسه تاري مع الأفنديه دا هم السبب في موت جوزي . واتفقت معاه إني حرجعله وأخد الشطنة، وبعد ما خلصت مع الأفندية، رجعتله وقلتله بعد ما أمشي إبعت مرسال لمحمد بيه ظابط النقطه هو عارف كل حاجه، لأني كنت روحتله وحكتله من غير ما أجيب سيرة عن التلت حتت وإتفقت معاه ميجبش سيرتي في أي حاجه وطبعا بالعقد اللي حيلقوه معاهم وشهرته في القبض علي العصابات وافق.

بس يا سيد وقبل ما أقعد معاك جالي المرسال إن اتقبض عليهم كلهم .

والحمد لله، نام وارتاح في قبرك يا محمد؛ قدرت أخد تارك من الإنس والجن .

**تمت بحمد الله.**